ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون
دراسات سياسية وثقافية
Political and Cultural Studies
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة: هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد؛
- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو؛
النجاح والإخفاق في الثورة
■ محمد عمر كرداس؛
الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد؛
إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

دراسات محكّمة

النجاح والإخفاق في الثورة

راتب شعبو

اتجاهات السوريين نحو واقع الأزمة ومآلاتها

ريمون المعلولي

الثورة السورية بين الامتداد الواسع والهزيمة و«البارادايم» الصوفي

جمال الشوفي

الثورة العسيرة: تحولات الثورة السورية في ضوء ممارسة المعارضات المنقسمة، والاستراتيجيات الدولية المتصادمة

رياض زهر الدين

انتفاضات الربيع العربي بين العطب الموضوعي والذاتي

مهران الشامي

لوحة للفنان سامر إسماعيل (حيرة) 2017

الثورة السورية بين الامتداد الواسع والهزيمة و«البارادايم» الصوفي

جمال الشوفي

جمال الشوفي

كاتب وباحث سوري، دكتوراه في الفيزياء النووية من جامعة القاهرة 2008، له العديد من الأبحاث العلمية حول الوقاية الإشعاعية والطب النووي نشرت في مجلات متخصّصة، مدرس محاضر في جامعة الاتحاد الخاصة، كلية الهندسة المعلوماتية من 2012 حتى الآن، مدرس محاضر في جامعة دمشق-كلية الهندسة الميكانيكية والهندسية من 2012 إلى 2015. وله نشاطه أيضًا في الحقل الفكري السياسي، ومن كتبه المنشورة: المسألة السورية ومرايا الجيوبوليتيك الدولي، دفاعًا عن الحرية والوطن المهدور، الجدل التواصلي (سؤال العقل والتقنية)، ونشر عددًا من الدراسات مثل «المعارضة السورية بين بذور الحرية وطعوم الاستبداد- دراسة نقدية بنيوية» المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام، 2016؛ و«المجتمع المدني السوري بين الرؤية والواقع/ مخاض تجربة وهوية تتشكل» في العدد الأول من مجلة (قلمون) للدراسات والأبحاث – أيار 2017، وله العديد من المقالات المنشورة في صحف ومواقع عديدة، نال الدرجة الثالثة في مسابقة جائزة ياسين الحافظ في الفكر السياسي للعام 2017.

ملخص

تكاد التحولات التي عاشتها الثورة السورية بأرقامها ومعطياتها أن تتجاوز معايير بحثية عدة تحدد نجاح أو فشل الثورات. يمكن في المعايير العامة تقصي مجريات الواقع السوري بمتغيراته المتعددة من حيث الامتداد السلمي الواسع، والتحول إلى حالة عنفية متداخلة مع السلمية، والوصول إلى مرحلة من الصراع العسكري العنيف ذي محاور محلية وإقليمية تتخارج مع الثورة وأحلام وأهداف السوريين، لتنتقل بعدها إلى عقدة دولية جيوبوليتيكية تشارك فيها أطراف دولية متعددة تتقدمها روسيا.

تعدّ الدراسة الحالية محاولة لمقاربة معايير تقدم الثورة بدايةً، ثم انكسارها وهزيمتها، وفق مقارنات متعددة مع نماذج وقراءات سابقة؛ ومقارنة نقدية لواقع الحالة السورية ومستويات عطالتها الذاتية، وطرح الأطر الممكنة لتجاوزها. فالقوى والفعاليات السورية تباينت محدداتها بين أيديولوجية ونظرية ونفعية وتابعة للأجندات الدولية. ولم تدخل -حتى الآن- في مقاربة مفهومية وواقعية لإنتاج مقومات التحول من الثورة والفوضى والهزيمة، للتعاقد العام في مثلث المصلحة المادية العامة والفكر التنويري والقيم الحضارية المنتجة للاستقرار، وشروط التعاقد الوطني واستحقاق الدولة.

في خلاصة أولى، تبدو «صوفية» الروح السورية، التي تعاند وقائع الهدر المادي في الحقوق والبنى السورية العامة، أنها تشكل أنموذجًا (باراديم) يختلف معياريًا عن القراءات النظرية السابقة لوقائع الثورات. ويبدو أن نموذجها الصوفي سيبقى قائمًا ما لم نتجاوز معيقاتنا الذاتية بالانفتاح والإنتاج وملامسة حقائق الكارثة السورية، وإلا فسنكرر «صوفية» الروح مقابل هدر مقوماتنا المدنية والوطنية.

أولًا: مدخل وتوطئة

يقترن تحليل مسارات الثورات بمتحولات عدة قابلة للقياس، منها ما يعدّ رافعة تغيّر وتحوّل في تحقيق أهدافها، مقابل معايير التعثر والركود والانكسار؛ وفي كلتا الحالتين لا تعدّ معايير نهائية وجازمة. هذا وتبدو الدراسات المقارنة أكثر وضوحًا في معاييرها بعد استقرار الواقع العام لما بعد مرحلة الثورة، أكثر منها في خضم معتركها العام من فوضى وعدم استقرار وكثرة المتغيرات والمتحولات.

بعد اثني عشر عامًا من انطلاقة الثورة السورية وتبدل مساراتها المتلاحق، وفي سياق مراجعة نقدية تحاول تلمّس معايير التقدم من جهة، والتراجع من جهة أخرى؛ من الممكن إجراء دراسات مقارنة متعددة المستويات يمكنها الدلالة على تلك المعايير. تتجلى هذه المعايير عمومًا بامتداد الثورة الشعبي والواسع، انكسارها وهزيمتها، وعدم قدرتها على تحقيق أهدافها في التغير العام من سلطة الاستبداد والقمع الجائر إلى دولة الحقوق والحريات، ودور نخبتها السياسية والمعارضة في الحالتين، إضافةً إلى تحول سورية إلى جملة من المشاريع الخارجية السياسية والعسكرية المتناقضة في ما بينها، والمتناقضة جذريًا مع تطلعات الشعب السوري وثورته، واستحقاق استقراره في دولة.

وإذ تشير دلالات النموذج السوري إلى أنه وعلى الرغم من طول زمن مسارات الهدم والموت والتهجير الجماعي، وتغيّر مكونات سورية وشعبها ماديًا ومعنويًا تغيّرًا ندر تكراره في التاريخ السابق والمقروء، لم تزل الحالة السورية محط تشابك دولي متداخل ومعقد لم تحسم نتيجته نهائيًا؛ ولم تزل الروح والهوية السورية تعاند هدمها ووأدها العام؛ وما فتئت تقارير الأمم توثّق أن عشرات آلاف الأطفال السوريين قضوا بين معتقل وقتيل،[1] وتوكّد الأرقام أن مليون طفل سوري يتيم، ومثلهم معاق، ومليونين وربع مليون بلا تعليم.

حقيقة الواقع السوري اليوم لم تعد تكفيها اللغة وصفًا، ولا الأرقام عدًا. فأحلام السوريين كانت ولم تزل تحاول السيل نهرًا من السلام والاستقرار والازدهار. كانوا أطفالًا وشبّانًا وجيلًا بأكمله، لكنه اختفى وتشرد وبات مهجرًا في بقاع الأرض كلها. بينما سيل الفرضيات النظرية وأداليجها (أداليج جمع أدلوجة على وزن أفعولة كما الأنشوطة للواقع والفكر) تعالج الثورة من رؤاها الذاتية، من دون الوقوف على حال الواقع ومعطياته! وآلة السحق البشري لم تتوقف عن جزافية الموت الجماعي والتهجير القسري باصًا يتلوه باص! وزلزال العنف يهدم أحلام الشبّان وتوقهم الحق إلى الحرية والكرامة وتحقيق

(1) الشبكة السورية لحقوق الإنسان، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 2022. https://snhr.org/arabic/2020/ 11/20/12845/

العدالـة وسـيادة القانـون. وحتـى يومنـا هـذا تسـتمر تقاريـر المـوت تسـجّل وقائـع حـال السـوريين فـي المعتقـلات والمختفيـن قسـرًا[2]، وأعـداد المهجريـن التـي تزيـد عـن ثلاثـة عشـر مليونًـا، وأخبـار حفـرة حـيّ التضامن وشـاهد كوبلنـز[3]! وتفيـد المنظمـات الأمميـة أن جميعهـا موثقـة إلى حيـن التوصّل إلـى حلٍ سياسـي مفترض! ويـردد الطفل فـي صدورنـا: إلـى حيـن التوصّـل إلى صفقـة سياسـية وتقاسـم الكعكـة السـورية إذًا!

الثـورة السـورية، ومنهـا تبـدت المسـألة السـورية عقـدة دوليـة متشـابكة كثيـرة المتغيـرات، باتـت لا تكفيهـا نظريـة بعينهـا أو أبحـاث ودراسـات لواقـع مختلـف حتـى تفـي بمعاييرهـا البحثيـة، سـواء بامتدادهـا الأفقـي السـلمي الواسـع، والتوسـع التدريجـي لدوائـر العنـف التـي أحاطتهـا ونتجـت عنهـا. ومـن ثـم تحوّلهـا إلـى سـاحة حـرب متعـددة الجبهـات والمحـاور، أو بانحسـارها وانكسـارها العامـودي وتمحورهـا حـول منصـات سياسـية وعسـكرية نفعيـة، محليـة ودوليـة، متباينـة الأغـراض. ونتيجتهـا الراهنـة هـدر الحقـوق الماديـة وتهشـيم البنـى المجتمعيـة، حتـى اسـتحالت الـروح السـورية إلـى نمـوذج صوفـي[4] يعانـد قدريـة سـكوننا الدهـري، سـباتنا التاريخـي، وسياسـات النفـي والنهـي والأمـر، الهـرم الأيديولوجـي، عسـف العنـف؛ وويـلات الجيوبوليتيـك الروسـي والإيرانـي ولعبـة العولمـة الأميركيـة والتركيـة والأوروبيـة تطحـن مصالحهـا كالملـح علـى ظهورنـا. بينمـا لـم يـزل **بيدرسـون**، المبعـوث الأممـي الخـاص بسـورية، يقـدم مطالعتـه لمجلـس الأمـن للعـام السـابع، ويتحـدث عـن الانقسـام وغيـاب الثقـة كحائـل أمـام حـل الصـراع السـوري[5]. عُقـدت لهـذا الشـأن عشـرات الجنيفـات والأسـتانات، ونُظِّمَـت عشـرات المنصـات السياسـية ومئـات المنظمـات والأحـزاب، ومثلهـا ويزيـد، مـن قـرارات مجلـس الأمـن[6]، ولا حـل يجـد سـبيله إلـى التحقـق! فهـل كنـا نحلـم؟ وهـل توهمنـا أننـا سـنحقق دولتنـا العصريـة علمًـا وقانونًـا، دولـة سـياجها الدسـتور وأرضهـا حريـة الفكـر والقـول والإيمـان، وأبناؤهـا يحكمـون بالعقـل والحكمـة والعـدل قبـل السـطوة والملـك؟

الثـورة التـي تنشـد تحقـق الدولـة العصريـة، دولـة الحـق والقانـون، دولـة الحريـات الفكريـة والسياسـية

---

(2) HRW، 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 2022. https://2u.pw/DHqRRR

(3) المرجع نفسه، 6 كانون الأول/ ديسمبر 2022. https://www.hrw.org/ar/news/2022/01/06/380903

(4) الصوفيـة، وأصـل الكلمـة يونانـي مشـتق مـن «سـوفيا» وتعنـي الحكمـة بحسـب البيرونـي. وعلـى الرغـم مـن أن إحالتهـا الأولـى إلـى طريقـة إسـلامية دعـت إلـى الإيمـان الروحـي كمرحلـة عليـا مـن مراحـل الإيمـان، نمـت وتعـددت طرائقهـا بـدءًا مـن القـرن الثالـث الهجـري مـع اشـتداد الصـراع علـى السـلطة والخلافـة فـي وقتهـا. مـن الجديـر ذكـره أن الصوفيـة قدمـت للفكـر والثقافـة العربيـة والإسـلامية فتوحـات لغويـة وأدبيـة وفلسـفية متقدمـة عـن عصرهـا، ونقطـة الوضـوح فيهـا القـدرة علـى الإنـارة العقليـة والروحيـة مقابـل اشـتداد ظلمـة الواقـع المـادي.

نقصـد بالصوفيـة فـي الحالـة السـورية بمعناهـا العـام: تجليـات الـروح المتسـامية فـوق المظالـم وأحـكام القوانيـن والمصالـح الماديـة المطبقـة علـى حيـاة الإنسـان ومصيـره المهـدور، والتـي لا تـزال تبحـث عـن تجسـدها فـي الواقـع المـادي حقوقًـا وحريـات.

(5) Un.News، 29 آب/ أغسطس 2022. https://news.un.org/ar/story/2022/08/1110002

(6) سـجلّ تاريـخ المسـألة السـورية خـلال 12 عـام: 19 فيتـو روسـي، عشـرات القـرارات فـي مجلـس الأمـن (للانتقـال الساسـي، للإرهـاب، لوقـف الأعمـال القتاليـة، لإدخـال المسـاعدات ...إلـخ) ولـم يكـن أي منهـا ملزمًـا بالتنفيـذ، 19 لقـاء أسـتاني ثلاثـي النفـوذ، 12 لقـاءً أمميًـا جنيفيًـا، 9 لقـاءات تفاوضيـة فـي لجنتهـا الدسـتورية، مجلـس وطنـي وهيئـة تنسـيق، ائتـلاف وهيئـة عليـا للتفـاوض، كتـل ديمقراطيـة ومثلهـا يسـارية وقوميـة بالعشـرات، وإسـلام سياسـي معتـدل ومتطـرف، أحـزاب تتشـكل ومحـاور تعقـد لقاءاتهـا، ومـا يزيـد علـى ألفـي منظمـة مدنيـة، ومئـات الفصائـل العسـكرية مـن شـتى الأصنـاف!

والمدنية والإيمانية والحقوق المدنية والمادية المتساوية، لم تزل راهن الروح السورية على الرغم من هزيمتنا المعلنة. من هنا يمكن أن يبدأ سؤال آخر ومقارنات ومقاربات معيارية أخرى تحاول الدراسة حوارها نقديًا.

هدف الدراسة ومنهجيتها

تحاول الدراسة الحالية إجراء مقارنة لمتغيرات الثورة السورية من حيث: الامتداد الشعبي السلمي الواسع، سمات الأيديولوجيا السياسية والنفعية الهادمة في بنى الثورة، اتساع دوائر العنف والهزيمة العامة، وتحول سورية إلى عقدة صراع دولي سياسي جيوبوليتيكي قد تقود لمقدمات حرب عالمية. ومن ثم مقارنة هذه المتغيرات مع ما قدمته معايير الدراسات السابقة في تحليل الثورات وتوصيف مآلاتها.

يتجلى غرض الدراسة الرئيس في وضع Paradigm (أنموذج) لمجريات الحدث السوري كحالة خاصة، وربما مفصلية في الشأن السوري وتداعياته الدولية. وفرضية السؤال تكمن في أن نجاح الثورات، وعلى الرغم من اختلافاتها البنيوية، ومن ثمّ تكمن في تحقق اقتران متغيرات ثلاث: الحقوق المادية على مستوى *المصلحة العمومية* فوق مصالح الذوات والأنوات الفردية والحزبية السياسية والدينية، *النماذج الفكرية التنويرية* التي تقود إلى التحرر والانعتاق المجتمعي الفكري، *والقيم الأخلاقية* المولدة للاستقرار والسيادة والعدل، وأن أي خلل في إحداها سيؤدي إلى تعثر الثورة وفشلها. فإلى أي مدى اقتربنا من هذا الاقتران الثلاثي؟ وهل نكتفي بوصف أنموذج (بارادايم) صوفي استثنائي يغالب الواقع وحسب، ما لم نساهم في تحقيق هذا الاقتران؟

ثانيًا: الفرضيات غير المكتملة: معايير التقدم والإخفاق

في محطات الثورة السورية ومسارها الشاق وتحولاتها المتعاقبة، ثمة التباس يكتنف تداخلاتها ومحاورها ومعطياتها. فحدة التعارض بين السلطة القائمة ورفضها المتعنت الاستجابة لأي مطلب شعبي وممارستها العنف المطلق، وبين قوى الشعب السوري بعمومه وردة فعله تجاهها، فتحت فجوة واسعة من انعدام الثقة في إمكان القوى الشعبية والثورية والسياسية التوصل مع سلطة النظام إلى أي توافق على أي حل بحده الأدنى بلا الضغط الدولي الملزم، غير المتحقق حتى اليوم.

ثمة عوامل عدة ذات أثر بالغ في مجريات الحدث السوري، أبرزها: التدخل الروسي الفج كقوة دولية كبرى، وتخلي المنظومة العالمية عن استحقاقات الشعب السوري في التغيير الممكن، وتبني سلطة النظام فرضية الحرب على الإرهاب القاتلة لجميع السوريين. لكن في الجهة المقابلة برزت في جسم الثورة عوامل هدم مضافة تمثلت في تعدد فرضيات الثورة وقواها وطرائق حلها ومقوماتها، بتعدد الأيديولوجيات والأحلام والأماني وتداخلها مع المصالح الدولية. اجتماع هذه العوامل حوّل الثورة إلى محطات عسيرة ومنعطفات عنفية، وساحة حرب باتت تشي بمقدمة حرب عالمية أخرى.

في متن هذا الفصل سنتناول متغيرات وعوامل الفشل الرئيسة التي انتابت الثورة، خاصة ما يمكن وضعه عوامل ذات دلالة مهمة، هذا مع الإدراك العميق لكونها لا تستنفد غيرها من عوامل، خاصة أجندة سلطة النظام وحلفائه الدوليين، أصحاب الأثر والمسؤولية الأولى في حال سورية اليوم، وهو

موضـوع دراسـات سياسـية أخـرى لا تتسـع لهـا الدراسـة الحاليـة.

متغيرات ومتحولات الثورة السورية

يجتـاح الفكـر السياسـي وأداليجـه السـائدة جمـلًا متعارضـة مـن المصطلحـات والمشـاريع تحـاول تقنيـن الفعـل الثـوري فيـه لمعادلـة بمجهـول وحـل وحيـد، كمـا تفعـل عمليـات الحسـاب المباشـر. وكل أدلوجـة تضـع مجهـول معادلتهـا وفـق منظموتهـا وعقائدهـا وحسـب. ونـادرًا مـا تجـد تلـك الـرؤى أن الواقـع متعـدد المجاهيـل لا تلائمـه أدلوجـة بعينهـا. ففـي سـياق المسـألة السـورية وثورتهـا الكليمـة حتـى اليـوم، تمـددت الحركـة الشـعبية الداخليـة واتسـعت رقعتهـا عبـر تظاهـرات واسـعة وحاشـدة سـلمية، اسـتمرت أسـبوعيًا لزمـن طويـل بـدءًا مـن آذار/ مـارس 2011، وبعضهـا مسـتمر حتـى اليـوم علـى الرغـم مـن تقطعهـا. لتتحول بالتدريـج نحـو العسـكرة والعنـف المضـاد لعنـف السـلطة وأجهزتهـا القمعيـة، ولتنتقـل بعدهـا إلـى صـراع وحـرب عنيفـة تتمحـور محليًـا وإقليميًـا بيـن مشـاريع وغايـات سياسـية عـدة، لتصـل إلـى عقـدة دوليـة تقـود دفتهـا العسـكرية روسـيا فـي حلـم عودتهـا الجيوبوليتيكيـة إلـى قطـب عالمـي منفـرد. هـذه المفاصـل ومراحلهـا الزمنيـة الموثقـة يمكـن تتبعهـا مرحليًـا فـي الهامـش أدنـاه[7].

(7) مسـارات المسـألة السـورية مـن الثـورة إلـى الحـرب، مـن التظاهـرات السـلمية التـي اجتاحـت المـدن السـورية، إلـى التدخـلات الإقليميـة والدوليـة العسـكرية والسياسـية. يمكـن تحديـد مفاصلهـا إجرائيًـا وفـق المراحـل التاليـة:

أولًا: التظاهـر السـلمي والممتـد أفقيًـا وشـعاره العـام «الشـعب السـوري الواحـد»، بعـد اعتصامَـي الحميديـة فـي 15 آذار/ مـارس 2011 ويواكيـر ضحايـا السـوريين فـي 18 آذار/ مـارس 2011 فـي درعـا. ظهـرت فـي هـذه المرحلـة بواكيـر العمـل المدنـي السـوري مـن لجـان التنسـيق المحليـة، وهيئـة توثيـق الانتهـاكات، أسسـها الشبان والناشـطون في مجال حقوق الإنسـان والعمـل المدنـي والسياسـي (وثائـق مركـز كارنيغـي للشـرق الأوسـط: https: / /carnegie-mec. org /syriaincrisis /?fa=50432.

يُختلـف حـول طـول مـدة هـذه المرحلـة وقصرهـا، بيـن سـتة أشـهر إلـى سـنة ونصـف السـنة، تلـك التـي وثقتهـا أسـماء وتظاهـرات الجمـع السـورية. بـدءًا مـن جمعـة «الكرامـة» فـي 25 آذار/ مـارس 2011، وصـولًا إلـى جمعـة «رغيـف الـدم» أواخـر 2012، وبشـكل متتـال أسـبوعيًا، وصلـت إلـى اليوميـة فـي بعـض المناطـق كأحيـاء حمـص قبـل الحصـار والتهجيـر (وثائـق العربيـة. نـت: السـوريون بـدؤوا بجمعـة «الكرامـة» وختمـوا بـ «رغيـف الـدم»، 31 كانـون الأول/ ديسـمبر 2012. https://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world.

ثانيًـا: التحـول التدريجـي للعمـل العسـكري وامتـدت مـن أواخـر 2011 مـع تداخـل مـع السـلمية، وتتضـح مـن منتصـف 2012 ويمتـد إلـى منتصـف 2013 تقريبًـا، وتشـكيل فصائـل الجيـش الحـر مـن العسـكريين والضبـاط المنشـقين عـن الجيـش (وثائـق زمـان الوصـل: https://www.zamanalwsl.net/news/article/19899) الـذي اسـتُخدم فـي قمـع المتظاهريـن واعتقالهـم المترافـق مـع اسـتمرار التظاهـرات السـلمية، وعمـل سياسـي كثيـف فـي أروقـة المعارضـة السـورية تجلـى بتشـكيل صيغـة المجلـس الوطنـي والتـي تطـورت إلـى ائتـلاف قـوى الثـورة والمعارضـة وهيئـة التنسـيق الوطنيـة.

ثالثًـا: التدخـلات الإقليميـة وتنامـي التطـرف والإرهـاب، مـن منتصـف 2013 حتـى التدخـل العسـكري الروسـي أيلـول 2015، حيـث ترافقـت تدخـلات حـزب اللـه الطائفيـة والميليشـيات الإيرانيـة (مـع العدالـة، الميليشـيات الطائفيـة: مفرخـة إيـران فـي سـورية، 10 آذار/ مـارس 2019)، مـع تنامـي الفصائـل العسـكرية ذات الصبغـة الإسـلامية واضمحلال وتـآكل فصائـل الجيـش الحـر واغتيـالات قادتهـا الأوائـل (العربـي الجديـد، داعـش بمدرسـة المشـاة: الذاكـرة تسـتدعي أبـو فـرات وحجـي مـارع، 10 تشـرين الأول/ أكتوبـر 2015)، المرحلـة التـي تفاقمـت فيهـا نزعتـا الكراهيـة والعنـف وتأجيـج الصـراع الطائفـي والمذهبـي وتعـدد الجبهـات والمتحاربيـن (وثائـق يورونيـوز: مَـن يقاتـل مَـن فـي سـورية؟ أبـرز وأكبـر الفصائـل المسـلحة حاليًـا، 16 تشـرين الأول/ أكتوبـر 2019). وتراجـع شـبه كلـي فـي التظاهـرات السـلمية، المترافـق مـع ظهـور الفصائـل الإرهابيـة المتطرفـة دينيًـا متمثلـة بداعـش والنصـرة (مركـز الجزيـرة للدراسـات: تنظيـم الدولـة الإسـلامية، النشـأة، التأثيـر، المسـتقبل، 19 نيسـان/ أبريـل 2015).

معياريًا، يمكن تتبع المتغيرات العامة في المشهد السوري ومقارنتها بنتائج الواقع الحالي وخلاصاتها العامة في نقاط محددة أهمها:

1. الامتداد الواسع للتظاهرات الشعبية السلمية التي اجتاحت معظم المناطق والمحافظات السورية الموثقة بالهامش أدناه. على الرغم من نسب المشاركة الشعبية الواسعة والتي تجاوزت النسب العالمية الكفيلة بالتغيير السلمي (حسبما سندقق لاحقًا) وامتدادها الأفقي في معظم الجغرافية السورية ولزمن طويل، لكنها لم تستطع حسم التغيير السياسي في سورية، كما حدث سريعًا في مصر وتونس قبلها.

2. البنى السياسية المعارضة بين هرم الأيديولوجيا والنفعية: وتباينها بين صنوف متعددة الفرضيات:

- وهم الشرعية الثورية والحسم السياسي السريع وتلك مثّلتها صيغة المجلس الوطني السوري، والتي اتخذت من وهم الشرعية الثورية والحشود الشعبية مرجعية تستند إليها في استعجال أو انتظار حوادث سقوط النظام والوصول إلى السلطة بدل سلطته القائمة. ذات الصيغة انضوت في فرضية الحسم العسكري بصرف النظر عن مشاريع الرايات العسكرية المتشكلة، سواء أكانت تعبر عن أهداف الثورة أو تتخارج معها، تبعًا لمقولة **ماوتسي تونغ** «تنبع السلطة من فوهة بندقية». ويتردد السؤال: كيف لهذه القيادات السياسية والعسكرية تبرير مسؤوليتها عن تنامي التطرف الديني وإمكان فصله عن قوى الثورة المدنية والسلمية أو العسكرية من أبناء الشعب المنشقة عن جيشه؟ وهل تمكنت من قيادة مرحلة انتقالية مفترضة؟ وهل حققت أدلوجتها في نزعة الوصول إلى السلطة بشرعية ثورية موهومة؟ وهل ينتج حكم القوة سلطة وحكمًا سياسيًا؟
- التغيير السلمي السياسي بالاستجابة: تلك التي مثلتها الأحزاب القومية واليسارية التقليدية والتي مثلت نفسها بهيئة التنسيق الوطنية. وحديثًا تطورت إلى الجبهة الوطنية الديمقراطية

رابعًا: المحاور الدولية الجيوبوليتيكية، والتي دشنتها روسيا في أيلول/ سبتمبر 2015، بإعلانها التدخل العسكري الجوي بداية في سورية ولمدة أربعة أشهر بحسب تصريحات رئيسها فلاديمير بوتين، والمستمرة حتى اليوم، والتي أتت على تهجير الداخلي السوري والسيطرة عليه عسكريًا، فحسب تقارير وزارة الدفاع الروسية «أن أكثر من 63 ألفًا من العسكريين الروس، بينهم 26 ألف ضابط و434 جنرالًا، نالوا خبرات قتالية عملية في سورية، فضلًا عن الخبرات التي اكتسبتها 91 في المئة من طواقم الطيران الحربي و60 في المئة من طواقم الطيران الاستراتيجي الروسي»، بالتزامن مع التدخل الأميركي ومن خلفه التحالف الدولي في الحرب على داعش شرق الفرات.

المحاور الجيوبوليتكية التي أُسِّسَت على أرضية هذه التدخلات ونظرياتها السياسية ومحاورها العسكرية تمايزت بين أستانة جيوعسكريًا وجنيف دوليًا درست تفصيلًا في بحث سابق (جيوبوليتيكا الدوائر المتقاطعة، سورية في عالم متغول، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 4/ 2018).

خامسًا: المساومات السياسية الدولية، منذ العام 2018 حتى اليوم، بعد إحكام روسيا وسلطة النظام سيطرتها على الداخل السوري، وبقاء إدلب وريف حلب الشمالي تحت سيطرة فصائل المعارضة وتحت الوصاية التركية وشرق الفرات تحت سيطرة قسد والحماية الأميركية، وفتح ملفات اللجنة الدستورية عام 2019 وحتى اليوم بلا نتائج تذكر.

هذه المراحل مشبعة بالكثير من التفاصيل والوثائق المتعلقة بحوادثها الكبرى والصغرى، منوهًا الى الكثير من الدراسات والوثائق التي يمكن الرجوع اليها تفصيلًا في هذا الشأن، لا يتسع مجالها هنا.

(جـود). ويؤخـذ علـى هـذه الصيغـة بحثهـا الدائـم عـن تمثيـل نفسـها فـي موقـع متقـدم مـن الحركـة السياسـية السـورية خاصـة فـي مرحلتهـا الانتقاليـة المفترضـة. تلـك التـي دعـت منسـقها العـام لرفـض تمثيـل الائتـلاف الوطنـي السـوري فـي الجامعـة العربيـة فـي اجتمـاع قطـر بدايـات 2013، بدعـوى أنـه لا يمثـل السـوريين كلهـم. مـا حـذا بالجامعـة حجـب مقعـد سـورية عـن المعارضـة السـورية، بعـد حجبـه عـن سـلطة النظـام، لعـدم توافـق معارضتهـا! وحتـى اليـوم يتكـرر السـؤال: مـاذا كسـبت هيئـة التنسـيق مـن هـذا الموقـف؟ فمـا زال النظـام شـرعيًا ويحـاول العـودة لملـئ مقعـد الجامعـة الشـاغر، ويمتلـك شـرعيته الدوليـة فـي الوقـت ذاتـه! هـل كان كسـب موقـع الجامعـة العربيـة لمصلحـة الائتـلاف سـيؤدي بالضـرورة إلـى فقـدان شـرعية النظـام موقعـه العالمـي الشـرعي فـي الأمـم المتحـدة؟ وهـل كانـت هيئـة التنسـيق سـتصبح خـارج العمـل السياسـي السـوري فـي ظـل مرحلـة انتقاليـة مفترضـة؟ وهـل حققـت أدلوجتهـا الديمقراطيـة؟

- الصيـغ البراغماتيـة: تلـك الصيـغ التـي تطـورت مـن المجلـس الوطنـي للتوسـع مـع ضـم الفصائل العسـكرية والمجالـس المحليـة لصيغـة الائتـلاف الوطنـي السـوري. وعلـى الرغـم مـن نيلـه شـرعية الأغلبيـة الدوليـة لمـدة زمنيـة طويلـة لكنـه بـدأ بفقدانهـا التدريجـي مـع خسـارات فصائـل المعارضـة العسـكرية معـارك المـدن وتهجيـر سـكانها حتـى عـام 2018. لتتحـول بعـده لصيغـة محـدودة فـي مناطـق شـمال حلـب وإدلـب، تتبـع للسياسـة التركيـة الموازبـة بيـن روسـيا وأميـركا ومـن خلفهـا المجتمـع الدولـي، مـن دون أن تحسـم خياراتهـا سـوى بالمصالـح الجزئيـة النفعيـة المحـددة والمرحليـة، وهـي حـال الائتـلاف اليـوم. فهـل يمكـن لقيادتهـا ومؤسسـاتها أن تجيـب عـن مصالـح السـوريين، أقلـه، مـن تفتـرض أنهـا تمثلهـم مـن قـوى الثـورة والمعارضـة؟ وهـل يمكنهـا ترسـيم المسـارات السياسـية وفصلهـا عـن الهزائـم العسـكرية بحكـم التدخـل الروسـي؟

كمـا ويمكـن تصنيـف قـوات سـورية الديموقراطيـة (قسـد) الكرديـة وتوسـعها السياسـي بوصفهـا (مسـد) فـي مناطـق شـرق الفـرات للصيغـة البراغماتيـة ذاتهـا، فـي شـبهة حكـم ذاتـي مسـتفيدة مـن الحمايـة الأميركيـة وقـوات التحالـف الدولـي. ولـم يجـد حتـى اليـوم صيغتـا الائتـلاف وقسـد أولـى نقـاط التفاهـم والمصلحـة المشـتركة بينهمـا وتقاطـع مصالـح السـوريين فـي المنطقتيـن. والسـؤال المطـروح: هـل يمكـن أن يتآلفـا إذا تآلفـت أميـركا وتركيـا كليـة ضـد روسـيا؟ وهـل هـذا ممكـن فـي المعادلـة العالميـة؟ وميـزان القـوى العالمـي ومسـار الحـدث السـوري اليـوم يشـير إلـى أنـه لـن تتـورط أي مـن روسـيا أو تركيـا أو أميـركا فـي فتـح مواجهـة مباشـرة بيـن أي طرفيـن منهـم بسـبب السـوريين. بينمـا البحـث عـن التوافقـات البينيـة ذات الحلـول الجزئيـة، ونتيجتهـا المزيـد مـن تفكيـك الهويـة السـورية هـي راهـن كليهمـا، الائتـلاف وقسـد. وهمـا حتـى اليـوم لا يمثـلان سـوى صيـغ النفعيـة السياسـية القابلـة للتغيـر وفـق المعـادلات الدوليـة المتحركـة، وموقـع كليهمـا مـن تغيـر السياسـة التركيـة أو الأميركيـة.

- بيـن هـذه وتلـك، وجـدت عشـرات الصيـغ والمشـاريع السياسـية السـورية ديمقراطيـة ويسـارية وتجمعـات مدنيـة وليبراليـة، تـكاد لا تجـد خلافًـا بيـن أوراقهـا السياسـية سـوى بشـخوص قيادتها. والمأخـذ الأسـاس علـى هـذه الصيـغ أنهـا لا تمتلـك حوامـل أو روافـع مجتمعيـة سـورية لأوراقهـا السياسـية النظريـة، سـوى بضـع مجموعـات ومشـاريع عمـل علـى عـدد أفـراد لا يتجاوز العشـرات منهـم. كمـا أنهـا لـم تسـتطع أن تشـكل بديـلًا عـن الائتـلاف لـه مرجعيـة دوليـة واضحـة المعالـم.

على الرغم من تدويل المسألة السورية مبكرًا عبر جنيف1، لم يتم تفعيل أي قرار دولي ملزم للحل، حتى وفق القرار 2254/ 2015 لمجلس الأمن. بينما تمكنت روسيا من فرض معادلتها العسكرية في الواقع السوري منذ العام 2015 لليوم، وهزيمة الثورة العسكرية. واللافت للانتباه هنا أن صيغة القرار 2254/ 2015، أتت بعد التدخل العسكري الروسي المباشر في سورية، وبعد تمدد الميليشيات الطائفية المدعومة إيرانيًا في مقابل الإسلامية المدعومة خليجيًا. والمهم فيه ورود الفقرات المتعلقة بالانتقال السياسي وتشكيل حكومة وحدة وطنية غير طائفية تجمع المعارضة والسلطة وتفصيلات المرحلة الانتقالية والدستورية. إلا أن ذات القرار تضمن في فقرته الثامنة محاربة الإرهاب المتمثل في الدولة الإسلامية في العراق والشام و(داعش) وجبهة النصرة وبقية الجماعات المتطرفة من دون تحديدها. الموقف الذي استفادت منه روسيا، وحذاها لعدم ممانعته بالفيتو، لكونه يحقق لها حجة الحرب على جميع السوريين: ثوريين وسلميين ومدنيين وعسكريين ومساواتهم بالإرهابيين! وذلك بمستند من مجلس الأمن لأول مرة في تاريخ حروبها الدولية.[8] في موازاة هذا اختار السوريون هيئة عليا للمفاوضات تضم مقاعد ومنصات المعارضات السورية، سعت بخلاصتها خلف صيغة اللجنة الدستورية، من دون التحقق السياسي لشرط بدء المرحلة الانتقالية أولًا، وفصل محاربة الإرهاب عن القرار 2254 وبقائه للانتقال السياسي فقط ثانيًا. وكأن الاستعجال في الجني البراغماتي أغفل التدقيق في تفاصيله وقبوله أو رفضه. ومع هذا لم يزل هو الصيغة الوحيدة للتغير السياسي المتفق عليه دوليًا، والمعترف بالمعارضة السورية والتغيير السياسي بحده الأدنى على الرغم من عيوبه، ومحاولات روسيا تدويل أستانة ومن خلفها سوتشي بديلًا عنه.

في خلاصة وصفية لموقف قوى الثورة والمعارضات السورية نجد:

أ. تباين المعارضات السورية بين الأيديولوجيا الهرمة والنفعية المحضة.

ب. اختلاط العمل السياسي بالعمل العسكري، وعدم فصله المنهجي عن قوى التطرف والإرهاب.

ج. قراءة الوثائق الدولية برغبوية نفعية من دون تدقيق، وعدم اتخاذ موقف سياسي واضح منها.

د. تغليب النزعة الشعورية والشرعية الثورية والتنافس السياسي الحاد على مواقع السلطة والقرار والقيادة الهادمة لصيغ التوافق الوطنية بحدودها الدنيا، وتغييب متعمد للخبرات السورية البحثية والوطنية.

ه. ارتباط المعارضات السورية، كما سلطة النظام، بمصالح الدول وتبعيتها لصراعها البيني، وعدم قدرتها على الاستقلالية بالقرار الذاتي الوطني.

و. ارتباط العمل المدني السوري، على تنوعه، بالتمويلات الدولية، بينما غيبت التمويلات السورية الذاتية عنها. ما جعلها أسيرة الأطر المفترضة دوليًا من دون تدقيق معطيات الواقع السوري ومعاييره الخاصة. وهذه تحتاج لدراسات مدققة كمية ونوعية محددة.

(8) روسيا و2254، Syria.Tv، 27 كانون الأول/ ديسمبر 2022، https://2u.pw/eYqmEd

لـم تتمكـن قـوى الثـورة والمعارضـات السـورية وحواملهـا المدنيـة والشـعبية مـن إيجـاد التكامـل الفعـال بيـن المصلحـة العموميـة والفكـر التغيـري التنويـري والقيـم الأخلاقيـة الحضاريـة، وبالضـرورة اختـزال مفهـوم العمـل السياسـي كعمـل بالشـأن العـام إلـى عمـل فـي شـؤونها الخاصـة أيديولوجيًـا أو نفعيًـا و/ أو تبعيـةً. مـا أدى لعـدم القـدرة علـى تمثيـل السـوريين بمفهومهـم الجمعـي السـوري. هـذا مـع افتـراض عدمـي النتيجـة، أن كل صيغـة عمـل أيديولوجيـة سياسـية أو نفعيـة مرحليـة تفتـرض نفسـها وحيـدة الحـل والبقيـة يهدمونهـا، مـن دون إثـارة حـوار نقـدي بنّـاء بينهـا.

فعلـى الرغـم مـن تعـدد وتنـوع صفـات الثـورات البشـرية التاريخيـة، لكنهـا ذات ملمـح عـام فـي تنـازع البشـرية علـى سـلطات وأنظمـة حكـم أكثـر عدالـة، وأكثرهـا إثمـارًا هـي التـي تمـس المصلحـة العامـة بعيـدًا عـن المصالـح النفعيـة لمجموعـات أو أحـزاب بعينهـا أو أداليـج متقادمـة تكتنفهـا الرومانسـية والرغبـة، وذلـك تبعًـا للقاعـدة التـي أرسـى معالمهـا المعرفيـة الأولـى أرسـطو: «إن المصلحـة التـي هـي مفيـدة لشـخص أو لمجموعـة مـن النـاس، هـي الحامـل الأعلـى فـي الأمـور السياسـية»، وينبغـي أن تكـون كذلـك.

فمـع أن المصلحـة ذاتهـا هـي قاعـدة التنـازع السياسـي والأيديولوجـي التاريخيـة، وهـي أهـم أسـباب قيـام الثـورات، لكـن النقطـة التـي نرقبهـا بحثيًـا هـي التوافـق الشـرطي والتلاقـي السياسـي بيـن المصلحـة العامـة والمعرفـة الإنسـانية فكريًـا وقيميًـا حيـن تعـزف معًـا فـي تناغـم عـام؛ فالثـورة ليسـت تغييـرًا فـي شـخوص الحـكام سـلطةً وحسـب، ولا التعبيـر الانفعالـي وإثـارة الفوضـى المشـحونة شـعوريًا وحسـب، بحسـب مـا يُطلـق عليـه شـعبيًا بالمـوروث العـام «ثـورة وثايـرة»، بـل بحسـب تعريـف بسـيط أولـي «الإتيـان بشـيء جديـد تفتضيـه طبيعـة الشـؤون الإنسـانية وتنتـج عـن تـأزم الحيـاة الاقتصاديـة فـي المجتمـع»[9].

المقاربات المنهجية والدراسات التحليلية المقارنة

بيـن فرضيـات السـلمية المدنيـة والسياسـية وبالضـرورة نبـذ العنـف والعسـكرة، وفرضيـات الثـورة العسـكرية كحـل بديـل لمواجهـة طغيـان السـلطة ونبـذ السـلمية والمدنيـة، وفرضيـات التدخـل العسـكري الخارجـي لمصلحـة الثـورة فـي مقابـل التسـوية السياسـية فـي ظـل الهزيمـة العسـكرية التـي لحقـت بالثـورة سـلميًا وعسـكريًا؛ تتبايـن فرضيـات العمـل السياسـي المعـارض بيـن الانزيـاح لهـذه وتلـك، وممارسـة صنـوف «التقيّـة» والمواربـة وعـدم الوضـوح، إضافـةً إلـى رفـض الحـوار النقـدي البنـاء وتجنـب خـوض غمـاره العلنـي. لتتكاثـر الفرضيـات، ومـع تكاثرهـا تنمـو العشـوائية والتخبـط ويخـوض الجميـع فـي تصعيـد لغـة الخطـاب المضـاد والعنيـف وتتبـدد معهـا المصلحـة السـورية العامـة وهـدف الثـورة ونغـرق فـي التفاصيـل. هـذا مـا يقودنـا لتحديـد المقاربـات المعياريـة التاليـة:

أ. **معاييـر النجـاح السـلمي للثـورات:** يذهـب دعـاة فرضيـة العمـل السـلمي والمدنـي إلـى أن الثـورة السـورية قـد أكلتهـا العسـكرة والأسـلمة، وهـم صادقـون وجدانيًـا علـى الأغلـب، لكـن هـل هـذا كل شـيء؟ معظـم حملـة هـذه الفرضيـة إمـا قضـوا فـي مراحـل الثـورة الأولـى فـي المعتقـلات، أو باتـوا مهجريـن خـارج سـورية وهـؤلاء يعيشـون الحريـة فـي بـلاد المهجـر مـن دون معادلـة التغييـر السـوري، وبعضهـم مـن ممارسـي الأيديولوجيـات بصنوفهـا، ومنهـم مـن فرضـت عليهـم العسـكرة! ولكـن قلمـا قاربـت هـذه الرؤيـة المقاييـس الواقعيـة المقاربـة للمسـألة السـورية.

(9) زهير الخويلدي، الثورة العربية وإرادة الحياة: مقاربة فلسفية، (د. م: مكتبة المنهل الإلكترونية، 2011)، ص167.

تقول القاعدة الذهبية التي حدّثها باحثون في مجال تحليل الثورات: أنه يكفي أن تشارك ما نسبته 3.5 في المئة من الشعب في التظاهرات السلمية حتى يحدث التغيير. فوفقًا لقواعد التحديث التي أجراها ديفيد روبسون بالاعتماد على نتائج تحليلية سابقة أن «مشاركة 3.5 في المئة من السكان مشاركة فعالة في الاحتجاجات تضمن حصول تغيير سياسي حقيقي»[10]، بينما تظهر أرقام وإحصاءات التظاهر السلمي السوري أرقامًا ونسبًا مضاعفة وبتواترات زمنية متتالية[11]، ومع هذا لم تنجح الثورة السلمية!

معايير العسكرة وثوراتها: يذهب أصحاب رؤية العمل العسكري والثورة العسكرية، بأن دعاة السلمية رومانسيون وربما «انتهازيون»! ولا يمكن إسقاط النظام إلا بالعمل العسكري والتدخل الخارجي أيضًا، وهم واقعيون نسبيًا مقارنة بمجريات الحدث العام في سورية حتى اليوم. ومع هذا لم يسقط النظام بالعمل العسكري كما السلمي قبله، ولم يحدث التدخل العسكري الخارجي ضد السلطة، بل تدخلت روسيا بعد تدخل الميليشيات الإيرانية مع السلطة، في حين ذهبت قوات التحالف الدولي ضد داعش شرق الفرات وحماية قسد. بينما بقيت تركيا وصية على شمال غرب سورية، تلوح كل يوم بعملية ضد قسد بحسب قدرتها على التفاهم مع أميركا وروسيا. لتتحول سورية إلى مستنقع لشتى صنوف الحرب المعلن منها والباطنة. والمحور الرئيس فيها أن العنف المسلح لم يحسم الحرب لصالح قوى المعارضة العسكرية، على الرغم من المساحات الواسعة التي كانت تسيطر عليها من عموم سورية. ففي تقريرها المسجل في آب/ أغسطس 2018، بعد تفريغ الداخل السوري في آخر جيوبه في درعا الجنوبية، أعلنت وزارة الدفاع الروسية: «أن الجيش السوري استعاد حتى الآن 96.5 في المئة من أراضي بلاده، بعد أن كان يسيطر على 8 في المئة فقط منها عند انطلاق العملية العسكرية الروسية في سورية سنة 2015. وانضمت إلى عملية المصالحة 324 جماعة مسلحة، وأكثر من 2500 مدينة وبلدة وقرية يبلغ إجمالي سكانها نحو 11.4 مليون نسمة»[12].

ب. **معايير الدراسات الرقمية**: في دراسة مقارنة حديثة أعدتها **ماريا ج. ستيفان** و**اريكا تشينويث**، درستا من خلالها التمايز والاختلاف بين الثورات السلمية والعنيفة والتي أظهرت نتائجها أن «نشاط المقاومة اللاعنفية الرئيسة قد حققت نجاحًا بنسبة 53 في المئة، مقابل 26 في المئة لفعاليات المقاومة العنيفة»[13]، وترد الباحثتان ذلك لسببين:

الأول: أن الثورات السلمية ذات شرعية محلية ودولية وتشجع على مشاركة أوسع نطاقًا شعبيًا. وهذا ما وجد في مراحل الثورة السورية الأولى. فقد أثبتت المؤشرات والتقارير الدولية والعربية أحقية الشعب السوري في مطالبه المشروعة في التغيير والثورة؛ وأصدرت أمانة الجامعة العربية مبكرًا بيانها الأول في 27 آب/ أغسطس 2011، رقم 148، أكدت فيه: «على

(11) «تواصل التظاهرات السلمية في سورية»، تقرير أخباري مصور، شبكة الجزيرة الإخبارية، 17 أيلول/ سبتمبر 2012.

(12) «الدفاع الروسية تستعرض نتائج العملية العسكرية في سورية»، https://2u.pw/eH1Nmk، RT.Arabic.

(13) عادل رفيق، لماذا تنجح المقاومة المدنية، (د. م: المعهد المصري للدراسات، 2017).

حـق الشـعب السـوري بحقـه بالحيـاة الكريمـة وتطلعاتـه المشـروعة بالإصـلاح السياسـي والاقتصادي وتحقيـق تطلعاتـه بالعـزة والكرامـة»[14]. كمـا أتـى بيـان جنيـف1 لعـام 2012، الصـادر عـن الأمـم المتحـدة، بضـرورة تحقيـق التغييـر السياسـي السـوري، مـع سـيل مـن التصريحـات الدوليـة بضـرورة التغييـر فـي سـورية والتنحـي عـن منصـب الرئاسـة لصالـح هيئـة حكـم كاملـة الصلاحيـات.

لـم **تثبـت هـذه الفرضيـة فاعليتهـا مـن حيـث السـلمية وتحقيـق التغييـر السياسـي المفتـرض فـي أعـوام الثـورة** الأولـى، ولا فـي مفاوضـات جنيـف الأولـى فـي المسـألة السـورية، والتـي قادتهـا المعارضـة السياسـية السـورية فـي جـولات لـم ينتـج عنهـا أي شـيء حتـى اليـوم، وذلـك قبـل التطـور الكبيـر فـي حالـة العسـكرة!

الثانـي: عـدم تمكـن السـلطات مـن تبريـر الهجمـات العنيفـة المضـادة ضـد السـلمية مقارنـة بالمسـلحة، «العنـف الـذي تمارسـه تلـك الأنظمـة ضـد حـركات المقاومـة السـلمية غالبًـا مـا يـؤدي إلـى نتائـج عكسـية ضـد هـذه الحكومـات، بينمـا تنظـر الجماهيـر إلـى الجماعـات المسـلحة العنيفـة علـى أن لهـا أهدافًـا متطرفـة تتجـاوز إمـكان تطبيقهـا علـى أرض الواقـع»[15]، وهـذا مـا يمكـن تلمسـه وضوحًـا فـي نمـاذج سـيطرة الفصائـل المسـلحة الإسـلامية مـن جهـة، والمتطرفـة مـن جهـة أخـرى علـى مناطـق واسـعة مـن سـورية، وخـروج التظاهـرات ضدهـا مـن أهالـي ذات المنطقـة. فحيـث سـاد لـون واحـد مـن السـيطرة العسـكرية وبصبغـة أيديولوجيـة وحيـدة، جعلـت السـكان قليلـة التعاطـف معهـا، سـواء فـي مناطـق سـيطرتها (كالغوطـة وإدلـب وغيرهـا) أو فـي مماثلتهـا لسـكان المناطـق الخاضعـة لسـيطرة النظـام (كالسـويداء).

ثمـة إحالـة مهمـة فـي سـياق التبايـن بيـن الثـورة والنـزاع علـى السـلطة، فالعمـل العسـكري يـؤدي الـى تغيـرات متعـددة فـي سـياقات الثـورة وحركـة التغييـر المنشـودة، فـإن كان أحدهـا إخـراج شـريحة واسـعة مـن الجمهـور مـن معادلـة الصـراع هـذه لأسـباب متعـددة: الخـوف مـن الحـرب، رماديـة الرؤيـة، مناهضـة العنـف ...إلـخ، لكـن النقطـة الأبـرز فيهـا هـي فقـدان العمـل السياسـي لفاعليتـه فـي مجـرى الحـوادث وتحولـه إلـى تابـع لنتيجـة الحـرب، وهـو مـا دققتـه **حنّـة آرنـت** بوضـوح: فـ«النظريـة الحربيـة أو النظريـة الثوريـة لا تبحـث إلا فـي تسـويغ العنـف، لأن هـذا التسـويغ يؤلـف حدهـا السياسـي، وإذا وصلـت، عوضًـا عـن ذلـك، إلـى تمجيـد العنـف أو تسـويغه، بوصفـه عنفًـا، فإنهـا لا تعـود نظريـة سياسـية، بـل نظريـة مضـادة لمـا هـو سياسـي.»[16] لتبـدو هـذه النقطـة محطـة مهمـة فـي مسـار الصـراع السـوري لـم تأخـذ حقهـا فـي الدراسـات والبحـث المنهجـي بقـدر حديّـة التأييـد أو الرفـض المطلقَيـن للسـلمية مقابـل العسـكرة، وعـدم إمـكان التحكـم فـي المسـار العسـكري ونتائجـه الخطـرة، واضطـرار الشـارع السـلمي لحمـل السـلاح ضـد العنـف السـلطوي.

بحسـب تصريحـات المسـؤولين الـروس[17]، لقـد أنتجـت لقـاءات الأسـتانة التـي مُثلـت بالفصائـل

(14) أمانة شؤون الجامعة العربية، ملف وثائقي استرشادي حول سورية، 26 أيلول/ سبتمبر 2017، ص-6 30.
(15) رفيق، لماذا تنجح المقاومة المدنية.
(16) حنّة آرنت، في الثورة، عطا عبد الوهاب (مترجم)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص24.
(17) «موسكو: المعارضـة الموجـودة علـى الأرض ستشـارك فـي اجتمـاع أسـتانا»، روسـيا اليـوم العربيـة، 23 كانـون الأول/ ديسـمبر 2016.

العسكرية المتنازعة على الأرض، نقاط تحول في معادلات المراحل السورية. فقد باتت حالة صراع عسكري حربي جيوسياسي في تقاسم مواقع النفوذ والسيطرة، وإن كانت آنية لم تنته شروطها بعد، في محاور إدلب وشمال غرب وشرق سورية. وهذا يبتعد عن مفهومي الثورة وفرضية نجاح النزاع السلمي عن العنفي بنسب إحصائية، بل تظهر المسألة السورية حجم الاختلاط بين الثورة، سلمية أو حتى عنفية، وبين الصراع العسكري بين محاور ودول باتت متخارجة مع أهداف التغيير السياسي والثورة بالأساس.

ج. **دور السلطة والمؤسسة العسكرية:** من المهم التوقف عند دور المؤسسة العسكرية من الثورة السلمية أو العنفية. تلك التي تناولتها دراسة أخرى مقارنة في الثورة المصرية الحديثة، صدرت عن مركز دراسات الجزيرة في دور المؤسسة العسكرية في الثورات ف«موقف المؤسسة العسكرية من النظام 'مؤيدة، محايدة، معارضة'، بوصفها تشكل حجر الزاوية في نجاح أو فشل أي ثورة، فكما أنه تشكل حجر الزاوية في الانقضاض على الديمقراطية من خلال الانقلابات العسكرية، نجدها أداة مهمة في الثورة لإطاحة النظم المستبدة.»[18] وهو ما أكده **وائل غنيم**، أي أهمية المؤسسة العسكرية المصرية في إنجاح ثورة 25 كانون الثاني/ يناير 2011: «وجدتُ القناة الأولى الرسمية توكد أن الجيش المصري موافق على مطالب الشبان»[19]، لكن كان للمؤسسة ذاتها شأن مهم بوصفها المنقضّ على السلطة في مصر بعد انتفاضة 30 حزيران/ يونيو 2013. هذا في حين تحولت سورية إلى ساحة حرب مفتوحة على الدمار من جوانبه كلها، حين جُيرت المؤسسة العسكرية لمصلحة السلطة الحاكمة، واتخاذها موقفًا عدائيًا عنيفًا ضد أي حراك سوري معارض، أدت إلى انشقاقات متتالية فيها واسعة فردية. واستدعت تدخلات عسكرية خارجية متعددة، تحولت معها سورية إلى ساحة صراع إقليمي ودولي متعدد الأهداف والأغراض، وهذا خارج عن الثورة سواء بصيغتها السلمية أو العنفية المفترضة، أو بوصفها مسألة تختص بالشأن المحلي السوري، لتصبح حالة حرب معلنة. فهل تنتهي المسألة والفرضية هنا؟

ثالثًا: التجارب العالمية والنموذج السوري

حمل التاريخ، خاصة الحديث منه، نماذج ثورية متعددة لأنماط العمل الثوري أدت إلى استقرار أوروبا وترسيخ الدولة الحديثة بجميع أسسها القانونية والتعاقدية، أهمها: الثورة الإنكليزية والأميركية، الثورة الفرنسية، الثورة السوفياتية، مشكلة نماذج عالمية مفصلية في التاريخ الحديث، وقِبلةً للحركات الثورية في مختلف أرجاء العالم.

تحدد الدراسات التي تؤرخ وتدرس ثورات الشعوب المعاصرة معايير محددة لطرائق إنجاحها ونتائجها اللاحقة، وأثرها في مستقبل شعوبها والعالم أيضًا. فتبعًا للفوارق الزمنية والمكانية المنهجية بحثيًا لا يمكن إيجاد أنموذج وحيد لنجاح ثورة، بقدر دراسة عوامل نجاحها والاستفادة من تجاربها

(18) بدر حسن شافعي، محددات نجاح الثورات، (مركز الجزيرة للدراسات، 2015)، ص3.
(19) وائل غنيم، الثورة 2.0، (القاهرة: دار الشروق، 2012)، ص435.

كمقومـات يبنـى عليهـا، مـن حيـث نمـوذج الحكـم السـائد وقدرتـه علـى إنتـاج أفـكار وأدوات عمـل أكثـر إنسـانية وعدالـة. وسـنكتفي بالإشـارة إلـى ملامـح مميـزة فـي بعضهـا أدنـاه.

مقاربات ثلاث:

فـي مقاربـة أولـى: تُظهـر المقارنـة بيـن التجربتيـن الفرنسـية والإنكليزيـة بوضـوح أهميـة العقـد الاجتماعي الرضائـي بعـد الثـورة، والعمـل علـى سـواد الاسـتقرار والأمـان وتحييـد نزعـة التفـرد بالسـلطة والشـرعية الثوريـة، فحسـب **هوبـز** «النـاس كلمـا أدركـوا، عـن وعـي، النتائـج السـيئة المترتبـة علـى حالـة الفوضـى والاضطـراب، تمسـكوا بالقانـون، وتمسـكوا بالنظـام.»[20] تمثَّـل الاختـلاف بيـن الثورتيـن بوضـوح فـي قبول الشـعب الإنكليـزي الملكيـة مقابـل الإصلاحـات الدسـتورية والحقوقيـة والقانونيـة، مـع تخلـي الملـك عـن سـلطاته المطلقـة لصالـح الشـعب، فالملـك يملـك ولا يحكـم، بينمـا بقيـت الثـورة الفرنسـية عقـودًا حتـى وصلـت إلـى عقدهـا الاجتماعـي وقـد أضافـت الحريـة ونظـام الحكـم الجمهـوري فـي قوانينهـا خلافًـا للإنكليزيـة. لتتفـق الثورتـان فـي نقطتيـن واضحتيـن:

ليـس الفكـر والوعـي أسـاس الثـورة، فالفـرض الجدلـي القائـل إن المعرفـة تصنـع بمفردهـا الثـورة، تنقضـه ثـورة الشـعب الفرنسـي الـذي يفتـرض أنـه أنتـج عقـده الاجتماعـي فـي دولـة الحريـات العصريـة، منـذ أفـكار **روسـو** قبـل 40 عـام مـن الثـورة، مـن دون الحاجـة إلـى ثـورة المسـتضعفين والمظلوميـن والمسـحوقين فـ «روبيسـبير لـم يكـن ينـام وتحـت مخدتـه العقـد الاجتماعـي، ولا لويـس الرابـع عشـر وتحـت وسـادته الليفياتـون.»[21] وهـذا ليـس موقفًـا ضـد المعرفـة، بـل إعطاءهـا حيزهـا الفعلـي فـي إعـادة صـوغ المجـرى والمحتـوى العـام بكليـة تناقضاتـه، والمسـاهمة فـي بنـاء مؤسسـات المجتمـع القانونيـة والقضائيـة والدسـتورية، وتحقـق قـران المعرفـة والفكـر التنويـري مـع المصلحـة العامـة مـن دون المفاضلـة بينهمـا. بينمـا سـيؤدي انفكاكهمـا إلـى صـراع علـى المصالـح أو الأفـكار كحـق سـلطوي وقيـادي مـن نـوع مختلـف، فـ«المفكـر ذاتـه هـو فـي الوقت نفسـه موضـوع السـلطة وأداتهـا، والفكـرة التـي يحملهـا المفكرون الشـموليون علـى أنهـم موجهـو الضمائـر ومنتجـو خطـاب الحقيقـة وعازفـو نشـيد الخلـود تنتمـي هـي ذاتهـا إلـى نظـام السـلطة.»[22]

المعرفـة والفكـر النظـري يمكنـه أن يـؤدي دوره التنويـري فـي الاسـتقرار والتعاقـد العـام. فأفـكار فولتيـر وديـدرو وجـان جـاك روسـو قـد سـبقت قيـام الثـورة الفرنسـية بعقـود، حيـث أن مفاهيـم الحريـة والإخـاء والمسـاواة التـي دشـنت بهـا اسـتقرار فرنسـا فـي جمهوريتهـا الثالثـة هـي ذاتهـا كلمـات ومفاهيـم جـان جـاك روسـو، والتـي لـم يكـن يعلـم وقتهـا أنهـا سـتكون خلاصـة الثـورة بعـد اسـتنزافها لعقـود سـتة تقريبًـا، «فهـو، أي روسـو، لـم يكـن يـدري أنـه يدعـو إلـى ثـورة، فـلا نجـد فـي مؤلفاتـه أي كلمـة صريحـة عـن ذلـك، ولكـن ثـورة حياتـه ومؤلفاتـه كانـت تُناقـض النظـام السـابق للثـورة فـي المجتمـع والدولـة، بحيـث أصبحـت هـذه الحيـاة وهـذه المؤلفـات مبـادئ عامـة للحيـاة الجديـدة.»[23]

(20) عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985)، ص329.
(21) عبـد العزيـز العيادي، ميشـال فوكو، المعرفة والسـلطة، (بيروت: المؤسسـة الجامعية للدراسـات والنشـر، 1994)، ص24.
(22) بير بورديو، الرمز والسلطة، عبد السلام بنعبد العالي (مترجم)، (الرباط: توقبال للنشر، 1986)، ص45 – 46.
(23) سلامة موسى، كتاب الثورات، (القاهرة: هنداوي، 2014)، ص57.

في حين تبرز النقطة الثانية بوضوح أكثر، أن سواد العدالة وحكم القانون وتغليب الحريات والاستقرار لم يتحقق إلا عندما التقت أفكار التنوير هذه مع مصلحة الشعب عامة، وحاملها الأبرز هم رجال الأمة القادرين على تغليب المصلحة العامة على مصالحهم السلطوية السياسية. فكان الانفتاح الاقتصادي وحريته والعدالة وحقوق العمال، الشريحة الأوسع مجتمعيًا وأداة الإنتاج، أساس بناء الدولة الحديثة، وشريك تحقّق الحريات الفكرية والإيمانية والسياسية. وهذا ما يعدّ أساسًا متكاملًا بين المصلحة المادية والأفكار التنويرية والقيم الحضارية. حيث تعدّ الثورة الصناعية الإنكليزية وحواملها البرجوازية ماديًا وفكريًا في عصرها من أهم الثورات في التاريخ، لانعكاس نتاجها على البشرية كلها لا على شعب واحد فقط.[24]

في مقاربة ثانية: تضيء التجربة الأميركية تبعًا لأفكار **جون لوك** المدنية وإضافة إلى صوغ دستور يعتمد الحريات الفردية وحق الدفاع عنها، على ما يعرف بدور رجال الدولة وآبائها المؤسسين، وضرورة ربط الحرية بمفهوم الاقتصاد المنفتح على العالم. وتلك كانت مسؤولية تاريخية في إعادة ترميم ما هدمته الحرب الأهلية الأميركية مشكلة الأنموذج الفكري البنّاء لرجل الدولة، رجل بلا هوس الاستحواذ على السلطة وحسب، تلك التي أجازها **أبراهام لينكولن** «بفضل نبذ الحقد تجاه أي أحد، وبالإحسان للمجتمع، وبالحزم في الحق، كما أرانا الله، هلموا جميعًا ننجز العمل الذي نقوم به لتضميد جراح الأمة، والعناية بمن تحمّل عبء الحرب، وأرملته وابنه اليتيم، لنعمل كل ما يحقق السلام العادل والدائم، ورعايته بيننا وبين الأمم قاطبة.»[25] فكانت دستورًا وعقدًا جماعيًا لدولة باتت كبرى اليوم.

بينما تبرز **المقاربة الثالثة**: دور القيادة المركزية في الهدم السلبي لبناء الدولة واستقرارها في التجربة السوفياتية. فعلى الرغم من نجاح ثورتها بداية، وطرحها العدالة الاجتماعية كنقطة منيرة في حاضر الشعوب، وقعت أسيرة تغليب قوة السلطة على قوة الدولة المرعية من تعاقد الشعب على المصلحة العامة. وهذا ما نجده سائدًا حتى اليوم في فكر الشرق العربي الأكثر تأثرًا بفكرة القيادة والصراع على السلطة وحسب. ما يهددها بالفشل المتتالي كما حدث مع الثورة السوفياتية. وحسب **عزمي بشارة** «الثورة بهذا المعنى هي حركة تغيير لشرعية سياسية قائمة لا تعترف بها وتستبدلها بشرعية جديدة؛»[26] إذًا لا يزال مفهوم الثورة مثيرًا للمشاعر السلبية منها والإيجابية، ومحفزًا لصور الغضب والهيجان الشعوري، كما صور العنف والعمل المسلح الدموي، وما بينهما من تواترات وانقطاعات. وهذا ما يمثل أساسًا وهم الشرعية الثورية الشعورية متمثلة في «الكلمات المشحونة بالمحتوى الانفعالي، وأسلوب تحريك التداعيات المعقدة لمصطلحي الثورة والثوري للمجموعات المختلفة في أزمنة وأمكنة مختلفة،»[27] ما يجعل موضوعة الثورة ليست وصفة جاهزة التقديم، بقدر ما هي موضوعات تحليل ونقد مستمرَّين.

أيًا يكن، وسواء أنجحت الثورات وأتت بأنظمة حكم جديدة أو أحدثت تغيرات كبرى في التاريخ،

(24) صلاح الإمام، أشهر الثورات في التاريخ، (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2011)، ص14.
(25) الحسيني الحسيني معدى ، موسوعة أشهر الثوار في العالم، (القاهرة: دار النهار، 2012)، ص7.
(26) عزمي بشارة، في الثورة والقابلية الثورية، (بيروت: المركز العربي للدراسات، 2012)، ص29.
(27) غرين برينتن، تشريح الثورة، سمير الحلبي (مترجم)، (دبي: كلمة للنشر، 2009)، ص24.

إلا أن من المهم الإقرار بشروط ومحددات بحثية عامة، أهمها:

- دراسة الأسباب والنتائج موضوعيًا، وأثر الثورة في التغيرات المحلية على مستوى شعب بذاته، كما وتجلياتها المستقبلية على المستوى المحلي والتاريخ البشري.
- طرائق وأدوات العمل الثوري التي تأتي بالنتيجة بأقل التكاليف المادية والبشرية الممكنة، ليبرز سؤال السلطة ونظام الحكم كسؤال جوهري ومفصلي تاريخي.
- التأسيس الفعلي على تكامل المصالح المادية والحقوق المدنية والحريات الفردية والقيم الحضارية الناتجة، كعمل شاق ومحوري له الأهمية القصوى لما بعد الثورات.
- التحول في الفعل الثوري، من سؤال السلطة لسؤال الدولة هو الخطوة الأولى في نجاح الثورات وتحقيق غايتها، لتبقى معه سؤال الثورة السورية، في هذا الجزء محط محاولة نظرية علّها تأتي بنتائج مختلفة عما نعيشه لليوم!
- من المهم جدًا التحديد أنه وقبل القرن العشرين، قلّما وجدت التدخلات العالمية المادية في شؤون ثورة بعينها. بينما يشهد العصر الحالي اتساع التدخلات المادية الضخمة ومحاور الهيمنة الدولية ومصالحها المادية وأثرها المباشر في تغيير أدوات الثورات، على الرغم من وجود الأفكار التحررية النظرية. ما يحيل لمحددات جديدة في سياق تحليل الثورة السورية خاصة، والثورات العربية عامة.

الثورة السورية معياريًا:

بحسب هيغل «الثورة لا تسقط العالم القديم كلية»، هي عملية دفن له بيسر أو بعنف، ولكنها تنشئ حالة من اللا دولة والفوضى العامة، بحيث يمكن لأي فرد أو جماعة أن يقول «أنا الدولة، والدولة أنا»، كما قالها الملك الفرنسي **لويس الرابع عشر**، وهذه هي حالنا اليوم. فغياب الدولة الوطنية وهيمنة السلطة المتغولة على مفاصلها عامة، أو عدم تحقق مشروع الدولة الوطنية بفعل الثورة يعني: غياب القانون والرادع الأخلاقي والحريات العامة السياسية والمدنية، وسواد العسف والظلم والمزيد من تغول سلطات الأمر الواقع، وانفلات الغرائز الطبيعية من عقالها، بحيث تغدو وكأنها شبهة حرية «مطلقة» معادلة للقهر والاستبداد المطلق. ويصبح الموت قتلًا أو في معتقل أو كمدًا وفقعًا سيد الموقف، والدمار حالة عمومية تسود البلاد ماديًا وقيميًا. ويا لشدة أهوال ما يعيشه بقية السوريين في الداخل بعد انكسار الثورة وهزيمتها عسكريًا!

ربما تأخر فكرنا السياسي من مقاربة أسباب الهزيمة التي تعيشها الثورة ونتائجها. والنتائج تكمن في الأسباب التي ولّدتها السطوة العسكرية والسياسية المنفردة التي أنتجت هذه الكارثة. إن وحدانية العمل السياسي والعسكري وفروض شرعيته هي أصل الكارثة، سواء أكانت بعثية سلطوية الطابع، أو مقابلها من أداليج إسلاموية أو علمانوبة أو شيوعية أو قومية أو مدنية، لم ترتقِ مستوى الكلية الوطنية، بقدر العمل على مقتضى برامجها الذاتية. فجميعها لا تقبل بعضها البعض، بل تخوض كل جهة معترك فرض إرادتها على البقية بالقوة، ولا تقبل الاتفاق والتوافق، وتستمر بالخلط بين السلطة والدولة. وها هي النتيجة لا تخطئها عين أو قلب أمّ تنتظر أولادها المعتقلين، أو أنامل طفل ترتجف من البرد في مخيمات اللجوء، أو قرينه الذي يستعطف المارة على قارعة شوارع دمشق العريقة!

ولـك أن تعـد ولا تنتهـي مـن حجـم كوارثنـا!

في حاضرنا السياسي والفكري بعد مضيّ اثني عشر عامًا، يمكن تحديد المعايير التالية للأنموذج السوري:

نجحـت الثـورة سـلميًا ولكنهـا لـم تُحـدث التغييـر السياسـي، وأسـباب هنـا يتجلـى أهمهـا لا كلهـا، فـي عسـكرة الدولـة التـي تقـوم عليهـا سـلطة النظـام، وتدويـل القضيـة السـورية ووهـم التدخـل العسـكري الخارجـي الـذي افترضتـه بعـض رمـوز المعارضـة، هـذا مـع عـدم حسـم المجتمـع الدولـي موقفـه مـن حـق الشـعب السـوري فـي بنـاء دولتـه العصريـة.

هُزمـت الثـورة عسـكريًا بعـد امتدادهـا الواسـع فـي معظـم المناطـق السـورية، ومـن ثـم تحولـت إلـى حـرب مفتوحـة بفعـل التدخـل الميليشـاوي الطائفـي أولًا، والروسـي الجيوبوليتيكـي ثانيًـا، وتحـول الثـورة العسـكرية إلـى احتـراب عـام، مضمونـه دون وطنـي ذو صبغـة طائفيـة محليـة، ومـن ثمـة إلـى عقـدة دوليـة متعـددة الأغـراض والأهـداف.

فـرض الشـرعيات الثوريـة السياسـية والمدنيـة والعسـكرية واحتـدام صـراع افتـراض أحقيـة كل منهـا منفـردة، هـو العامـل الحاسـم لتشـظي حقـوق السـوريين وتبـدل معالـم ثورتهـم إلـى صـراع عسـكري سياسـي متعـدد المناحـي. ارتهنـت كل جهـة فيـه لمصلحـة داعميهـا الإقليميـن أو الدوليين، وباتـت أسـيرة مصالحهـا كمـا سـلطة النظـام تمامًـا. فبـات السـوريون يتنازعـون ويتصارعـون ضـد بعضهـم، مـا أفـرز تنامـي الهويـات دون الوطنيـة، وسـعيها كل منهـا لأن تصبـح دولـة بحـد ذاتهـا كمـا قسـد شـرق الفـرات، والجبهـة الإسـلامية شـمال غـرب سـورية، فـي مقابـل هيمنـة السـلطة علـى مفاصـل الداخـل السـوري وتغولهـا فيـه. وربمـا نشـهد قيـام دولـة درزيـة أو جنوبيـة أو سـاحلية قريبًـا!

النفعيـة والبراغماتيـة ونزاعهـا الحـاد مـع الأيدولوجيـات. فقـد غرقـت الأيدولوجيـات في هرمها السياسـي مـن دون التعاطـي مـع معطيـات الواقـع المتغيـر، وذهبـت الحـركات السياسـية البراغماتيـة والمجموعـات المدنيـة للإقـرار فـي الواقـع الراهـن وممارسـة أدوارهـا المحـدودة فيـه.

بيـن الأيديولوجيـا الهرمـة والرومانسـية السياسـية مقابـل الواقعيـة المفرطـة الالتصـاق بالواقـع تبـددت العقلانيـة السياسـية الجامعـة بيـن المصلحـة والفكـر النظـري، وأغفـل معهـا أغلـب مقومـات الفكـر السياسـي للوضـع السـوري بمعاملاتـه الذاتيـة والمحليـة والدوليـة حتـى اليـوم. وسـؤال التغييـر السياسـي والفكـري والقيمـي وربطـه بالحريـة والمصلحـة العامـة الماديـة هـو الغائـب الفعلـي عـن آليـات التحقـق والإمـكان والوجـوب.

محددات التجاوز وتغيير مسار الهزيمة

يبـدأ الفعـل السياسـي الموصـوف بالعقلانيـة بإحـداث الفـرق فـي المجتمـع، حيـن يبـدأ معـه العمـل فـي الصالـح أو الشـأن العـام. هـو ليـس فعـلًا أخلاقيًـا أو هبـة وصدقـة تُفـدم وحسـب، بـل الحـد الأدنـى للقيـم التـي ترتقـي درجـة عليـا مـع المسـؤولية. وهـو ليـس عمـلًا للمصلحـة الشـخصية أو الحـزب وأيديولوجيتـه وتحقيقهـا وكفـى، بـل هـو ممارسـة العمـل السياسـي مـع الأحـزاب والهيئـات الأخـرى وفـق التنافـس الحـر الـذي يسـتهدف الصالـح العـام المجتمعـي. والمجتمـع، يختـار مـن يمثلـه فعليًـا منهـا ولزمـن محـدود تداولـي. السياسـة كفعـل فـي الشـأن العـام هـي الغائبـة حتـى اليـوم، وإلا لأنتجـت أحـد النمـاذج القائمـة السـلطوية أو المعارِضـة فعـلًا مختلفًـا فـي حيـاة السـوريين.

الشـأن العـام والمشـتقة مـن الكلمـة اليونانيـة «*Res- publica*»، أي الجمهوريـة.[28] هـي مفهـوم فـي ثلاثـة أركان: الحقـوق الماديـة كمصلحـة عامـة، والحقـوق المدنيـة، والأخـلاق والقيـم فـي آن. الشـأن العـام عمـل يتعلـق بالجميـع، وتنعكـس صورتـه بشـكل جلـي أمـام الـكل المجتمعـي. هـو الفعـل السياسـي القـادر علـى تجـاوز عقدتـي الأيديولوجيـا المعتقـدة فـي ذاتهـا أنهـا الأصلـح، والنفعيـة التـي تقـف علـى الضـد المباشـر مـن الأيدولوجيـا، وتعـدّ ذاتهـا صاحبـة الواقعيـة والبراغماتيـة فـي الإنتـاج. الشـأن العـام عمـل فـي الفكـر والأخـلاق والقيـم والمصالـح فـي آن معًـا. وأي انفـكاك بيـن أطرافهـا الثلاثـة، هـو عمـل فـي الشـأن الخـاص سـواء أكان حزبيًـا أو أيديولوجيًـا أو نفعيًـا حتـى وان حقـق مصلحـة فريقـه، إلا أنـه لـم يقـم وزنًـا للـكل المجتمعـي والمصلحـة المجتمعيـة الكليـة، ومنهـا احتـرام الاختـلاف والتنـوع المجتمعـي سياسـيًا وفكريًـا وثقافيًـا واقتصاديًـا. تلـك التـي تشـكل جميعهـا أرضيـة العقـد الاجتماعـي لبنـاء الدولـة. وهـذا مختلـف عـن فـرض شـروط وبرنامـج حـزب مـا أو قـوة عسـكرية مـا، أيدولوجيـا معينـة، أو هيئـة سياسـية طريقتهـا علـى المجتمـع. الأولـى عمـل فـي السياسـة بوصفهـا شـأن عـام وحرفـة بحسـب **ماكـس فيبـر** لـم تتقنـه المعارضـة ولا السـلطة حتـى اليـوم. والثانيـة عمـل فـي السياسـة بوصفهـا احتـراب وقـوة تمارسـه أغلبيـة سـلطات الأمـر الواقـع سياسـيًا وعسـكريًا. الأولـى قـادرة علـى البنـاء والديمومـة والاسـتمرار وتحقيـق الاسـتقرار والأمـان، وتلـك معاييـر المجتمـع المدنـي التـي يعمـل فيهـا فرقـاء العمـل المدنـي مـن دون تعميمهـا، بـل حصرهـا في أطرهـم الضيقـة. بينمـا الثانيـة، حتـى وان اسـتمرت لزمـن، سـتعمل علـى هـدم المجتمـع والدولـة، وسـورية بسياسـة وسـلطات الأمـر فـي واقعهـا وحاضرهـا اليـوم، مثـال لا تخطئـه عيـن!

يمكـن للثـورة أن تتعسـر، أن تنكسـر وتنهـزم، ويمكـن للمجتمـع أن يعـود إلـى حكـم العسـكر بشـكل أشـد، كمـا حـدث فـي الثـورة الفرنسـية، ويمكـن أن ينقلـب علـى نتائجهـا حكـم العسـكر بثـورة مضـادة كمـا حـدث فـي فرنسـا سـابقًا ومصـر حاليًـا، أو أن تسـقط تحـت حكـم السـلطة المركزيـة مطلقـة الصلاحيـات كمـا فـي روسـيا ...إلـخ، ولكـن هـذه دورة زمـن لـم تسـتمر تاريخيًـا. وطولهـا الزمنـي يتعلـق بجملـة مـن المعاييـر المرجحـة لكفـة الاسـتقرار واسـتعادة أرضيـة بنـاء الدولـة. مـا يقـود إلـى جملـة مـن المحـددات المهمـة فـي تجـاوز معيقـات حالنـا السـوري يمكـن فردهـا فـي خلاصـة مقارنـة للمقاربـات البحثيـة أعـلاه:

تتحقـق الدولـة عندمـا يسـاهم مجموعهـا العـام توافقيًـا فـي إنتـاج قوانينهـا ونظـام حكمهـا وتشـريعاتها التـي تضمـن الهويـة الوطنيـة المجـردة Naked Nationality مـن أي شـبهة سـلطوية أو نزعـة اسـتحواذية للاسـتفراد فيهـا، سـلطوية قائمـة أو معارضـة بديلـة.

القناعـة بـلا جـدوى الحلـول المسـتفردة بالسـلطة وبالضـرورة الانتقـال مـن الترتيـب الهرمـي الـذي تحكمـه سـلطة مـا، مـن أعلـى قمتـه بنظـام مركـزي تسـلطي أسـماه **خلـدون حسـن** النقيـب بالدولة التسـلطية، إلـى مجتمـع الحقـوق الأفقيـة المتسـاوية Horizontal Rights، والـذي يختلـف اختلافًـا جذريًـا عـن الهيمنـة والسـلطوية. وهـذه بحسـب تعريـف **تشـارلز تايلـور** بأنهـا الانتقـال مـن عالـم عمـودي العلاقـات إلـى مجتمعـات الحقـوق المتسـاوية، وهـي «مثـال أعلـى للمسـؤولية الذاتيـة مـع تعريـف جديـد للحريـة والعقـل والشـعور المترابـط بالكرامـة.»[29]

(28) «السياسـة والشـأن العـام حفـر الأيديولوجيـا وهضبـات البراغماتيـة»، ميسـلون للثقافـة والترجمـة والنشـر، https://2u.pw/kqxqao

(29) تشـارلز تايلـور، منابـع الـذات: تكـون الهويـة الحديثـة، حيـدر حـاج إسـماعيل (ترجمـة)، (بيـروت: المنظمـة العربيـة للترجمـة، 2014)، ص275.

العمل بالطرائق المتوازية Parallel Methods والمتكاملة فكريًا وسياسيًا واجتماعيًا ومدنيًا، من دون خوض غمار صراع فرضياتها واستحقاق إحداها المفرد، مع ضرورات توضيح وتفنيد الكوارث التي أنتجتها السياسة العسكرية الانحيازية لجهة السطوة وحسب سلطوية أو معارضة، بكل كوارثها المعلنة داخليًا ومحليًا ودوليًا.

الاعتدال السياسي وحق الكل السوري، والكل السوري بلا تصنيف ثوري أو سلطوي، ولنقل الوطنية السورية كهوية وطنية مجردة Naked Nationality، يقوم بها رجال دولة State Men من جميع الشرائح السورية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والمدنية. وإعادة إحياء الوجدان السوري في الداخل السوري المسحوق سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، المتضمن نزعته إلى الحرية والكرامة الشخصية والانفتاح العالمي والتعايش السلمي مع المحيط والجيران. والبحث في آليات توطين الحقوق المتساوية الأفقية لجميع السوريين من دون نزعات الفوقية أو الدونية السياسية والحزبية والأيديولوجية والدينية الإيمانية والفكرية والشخصية.

العمل على سيادة دولة القانون وكف يد الأجهزة الأمنية عنها، وتحقيق بواعث العدالة والحقوق والإنصاف لكل مكونات الشعب السوري، والذي بات كل مكون منه يحمل مظلوميته الخاصة من دون الشعور بالمظلومية العامة السورية وهويتها الوطنية.

وبالضرورة، يمكن للثورة أن تخطو مرة أخرى بالاتجاه الصحيح معياريًا لإنتاج الدولة وإنهاء مرحلة الفوضى الحالية، إذا ما تشكلت تلك الفعاليات السورية الوطنية، وتعاقدت على تحقيق مثلث المصلحة الوطنية العامة والفكر التحرري العصري والقيمة الحضارية لسورية، وهذه بعيدة عن صيغتَي السلطة والمعارضة السياسية، وقد تشاركا في هذه المعادلة إذما امتلكا إرادة التغيير هذه. واكتمال القناعة الحسية بالملامسة الواقعية لا النظرية وحسب، بمسؤولية سلطة النظام السوري عن الانهيار السوري العام ماديًا واقتصاديًا، في موازاة مسؤولية المعارضة السورية على عدم قدرتها على إنتاج أرضية هذه الحقوق وأدوات تفعيلها الممكنة.

الوطنية السورية اليوم أمام مسؤوليتها المباشرة والتاريخية، وأي خطوة سياسية لا ترتقي المعايير البحثية التي تقلص من الفوضى ومرحلة اللا دولة قد تذهب بما تبقى من الثورة وسورية. فالعمل على أسس مقومات الدولة ومحددات صناعة حدثها العام، واحتواء تناقضاته، وقراءة مشهدها العام وعقدها الدولية وكوارثها المحلية هو عمل على:

- امتلاك القدرة الذاتية على صناعة القرار الوطني.
- الإقرار بالحقوق المدنية والسياسية والإيمانية المتساوية لجميع السوريين.
- التجرد عن كسب معركة السلطة والحكم وفقًا للوطنية السورية المجردة.
- ملء الفراغ السياسي المُستقطب بين حدي السلطة والمعارضة.
- شق المسار المولِّد لمفهوم الكل السوري، وحقه العام في الحرية والعيش الكريم والتوافق على آلية حكمه، فحسب لوك «ولِد الإنسان وله الحق في الحرية الكاملة ولكل فرد الحق

فـي الحريـة لشـخصه؛ ليـس لأحـد أي سـلطة علـى هـذا.»[30] كمـا أجازهـا الصحابـي الفـاروق **عمـر بـن الخطـاب** قبلـه «متـى اسـتعبدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهاتهـم أحـرارًا.»

رابعًا وختامًا: البارادايم الصوفي، ماذا بعد؟

ليسـت مصادفـة أبـدًا، أنـه علـى الرغـم مـن موتنـا العلنـي وهـدر حقوقنـا الماديـة والحياتيـة، أن يتمـرد الطفـل فينـا علـى قوانيـن وشـرائع العالـم الماديـة ومصالـح الأمـم الرقميـة، ويعلـن أن الضحـك والمـرح لازمـة حيـاة. ففـي سـورية بلـغ الألـم حـد العجـز، وبلـغ المـوت حـدًا يفـوق الفجيعـة. ومـا زالـت الأمهـات ترتقـب صـوت فـرح ينبئهـا عـن وليدهـا المعتقـل، والطفولـة تحلـم باللـوح والسـبورة، واللعـب بأمـان.

المقارنـات والمعاييـر المشـتقة أعـلاه هـي محاولـة فـي وصـف بضـع المشـهد ووجـه مـن أوجـه الحقيقة. هـي محاولـة لا تدّعـي اكتمالهـا فـي تحديـد معاييـر وأرقـام ذات دلالـة علـى المشـهد السـوري الكارثـي اليـوم بتجلياتـه السياسـية والثقافيـة والماديـة والإنسـانية. وقـد تكـون غيـر ملمّـة بوصـف المشـهد السـوري بتمامـه، بقـدر محاولـة فتـح البوابـة أمـام دراسـات كميـة ونوعيـة واسـعة، يمكنهـا تعبيـد الطريـق أمـام رؤى ومناهـج بحثيـة تفيـد فـي تخفيـف آلام الحمـل وعسـر الـولادة ومشـقاتها بحسـب تعبيـر **ماركـس**.

لقـد نجحـت الثـورة سـلميًا ولكنهـا هُزمـت سياسـيًا بمعارضتهـا. ونجحـت عسـكريًا ولكنهـا هُزمـت جيوبوليتيكيًـا، وتنتقـل كـرة الجيوبوليتيـك الروسـي إلـى قلـب أوروبـا والنظـام العالمـي منـذرة بشـر حـرب عالميـة ثالثـة. فهـل سـتمثّل الثـورة السـورية فـي بارادايـم صوفـي اسـتثنائي فـي سـياق التحـولات التـي تشـهدها المنطقـة العربيـة برمتهـا وتداعيـات الحالـة الدوليـة عامـة؟

تقـف التحـولات الدوليـة مـن عصـر العولمـة إلـى الجيوبوليتيـك العولمـي فـي مقابـل الجيوبوليتيـك الروسـي الصاعـد مباشـرة وبوضـوح فـي وجـه تحقـق الدولـة السـورية الحديثـة. فالأولـى، وفـي مقدمتهـا أميـركا، لـو أرادت لحسـمت قضيـة الشـعب السـوري منـذ مسـألة الكيمـاوي عـام 2013، قبـل نمـو التطـرف والإرهـاب واحتـدام مشـاريع الحـرب الخارجـة عـن الثـورة ومبتغاهـا. والثانيـة الروسـية، هـا هـي تنتقـل اليـوم إلـى قلـب أوروبـا تهـدد السـلم العالمـي برمتـه. وقضيـة الشـعب السـوري هـي الضحيـة بيـن الطرفيـن ونقطـة التحـول العالمـي هـذا. بينمـا تجيـز لنـا المؤشـرات الدوليـة اليـوم القـول إن حـل المسـألة السـورية قـد يكـون مـن أهـم خطـوات تجنـب العالـم أن يقـع فريسـة حـرب عالميـة ثالثـة، دُق جرسـها فـي سـورية وجاوبتهـا أوكرانيـا فـي قلـب أوروبـا.

الاسـتثناء السـوري وأنموذجـه الصوفـي هـو بارادايـم التجلـي فـوق المـادة والعسـف السـلطوي وزلات الواقـع المميـت، هـو تلـك الـروح التـي ترفـض المـوت علـى الرغـم مـن كوارثهـا الماديـة. هـو روح الشـعب، يقينيـة الحقـوق، ثـورة الـروح الخلاقـة تنشـد مـع **الحـلاج**: عَجِبـتُ لِكِلَـيَ كَيـفَ يَحمِلُـهُ بَعضـي وَمِـن ثِقـلِ بَعضـي لَيـسَ تَحمِلُنـي أَرضـي. فـلا دول العالـم تسـتوعب كوارثنـا، وليسـت بـوارد حـل مشـكلاتنا إلا وفـقَ مصالحهـا، ونحـن السـوريون لـم نـدرك جيـدًا حتـى اليـوم مقـدار أهمية وأثـر المسـألة السـورية فـي متغيرات المشـهد الدولـي. كمـا ولـم نسـاهم بعـد فـي امتـلاك القـدرة علـى تمييـز هويتنـا الوطنيـة المجـردة وحقوقنـا المتسـاوية، وطرائـق العمـل الفكريـة والسياسـية والاجتماعيـة المتوازيـة، بقـدر تمييـز هوياتنـا دون الوطنيـة ومشـاريعنا السياسـية الأيديولوجيـة والعسـكرية والنفعيـة.

(30) جون لوك، رسالتان في الحكم، (د. م: د. ن، 1689)، ص190.

وعلى الرغم من هذا، لسان حال السوري يردد على الرغم من موتنا العلني: أنه من قرر أن يهدم أصنامه السياسية والفكرية عن سبق إصرارٍ وعمدٍ، وصناعة المعنى الوجودي والإنساني والتحرري، والبحث عن معالم وجودنا وحضورنا الزمني والعصري لا عن معجزات سياسية وسحرية. ولم يزل بالإمكان أن تتواضع الأنوات السورية أفرادًا وأحزابًا وانتماءات أمام الهوية العمومية ماديًا وحقوقيًا وفكريًا، والتي هي نتاج الحداثة والتنوير والعصر الحديث باعثة على الاستقرار في دولة حقوق وحريات!

هي محاولة وجود، لا تيأس ولا تهرم أناملها عن الفعل والحتّ في زوايا السياسة الدولية المعتمة وبقايا عفن وهرم سياساتنا الأيديولوجية والنفعية وتأخُّرنا التاريخي، ومحاولة متكررة لتحقيق ما لم تستطع الثورة تحقيقه بتداعياتها الأولى. وهذه منوطة بجيل من الشباب السوري ونخبه الفكرية والثقافية والاقتصادية على إيجاد الصلة الوثيقة بين الحقوق المادية العامة للكلية السورية، وأفكار التحرر والحداثة والقيمة الإنسانية. ويبدو حتى وقتنا هذا، أنها مهمة شاقة لكنها ممكنة إذا ما قاربنا المسألة السورية من بوابة الاستثناء لا التعميم، وأن حلها بشكل عادل قد يكون مقدمة للسلام العالمي وتحقق الاستقرار وحقوق الإنسان. فهل هذا ممكن وقريب؟

المراجع

1. آرنت، حنّة. في الثورة، عطا عبد الوهاب (مترجم)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 8002).
2. الإمام، صلاح. أشهر الثورات في التاريخ، (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2011).
3. إمام، عبد الفتاح. توماس هوبز فيلسوف العقلانية، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985).
4. برينتن، غرين. تشريح الثورة، سمير الحلبي (مترجم)، (دبي: كلمة للنشر، 2009).
5. بشارة، عزمي. في الثورة والقابلية الثورية، (بيروت: المركز العربي للدراسات، 2012).
6. بورديو، بير. الرمز والسلطة، عبد السلام بنعبد العالي (مترجم)، (الرباط: توقبال للنشر، 1986).
7. تايلور، تشارلز. منابع الذات: تكون الهوية الحديثة، حيدر حاج إسماعيل (ترجمة)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2014).
8. الحسيني معدى، الحسيني. موسوعة أشهر الثوار في العالم، (القاهرة: دار النهار، 2012).
9. الخويلدي، زهير. الثورة العربية وإرادة الحياة: مقاربة فلسفية، (د. م: مكتبة المنهل الإلكترونية، 2011).
10. شافعي، بدر حسن. محددات نجاح الثورات، (مركز الجزيرة للدراسات، 2015).
11. العيادي، عبد العزيز. ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1994).
12. غنيم، وائل. الثورة 2.0، (القاهرة: دار الشروق، 2012).
13. لوك، جون. رسالتان في الحكم، (د. م: د. ن، 1689).
14. موسى، سلامة. كتاب الثورات، (القاهرة: هنداوي، 2014).

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909